الحكمة الحسنية تقديم وحدة الأمة على فتنة السلطة

الدكتورة ثرية بن مسمية
أستاذة محاضرة في فلسفة الفن ، المعهد العالي أصول
الدين ، جامعة الزيتونة ، تونس
thourayamesmia@hotmail.com

Hassani wisdom presenting the unity of the nation over the sedition of power

Dr. Thuraya bin Masmia
Lecturer in Philosophy of Art, Higher Institute of Fundamentals of Religion, University of Ezzitouna, Tunisia
thourayamesmia@hotmail.com

الملخص:-

لا شكّ في أنّ كلّ صلح يعقد بين عادل وظالم. ورغم كلّ ذلك، تنجرّ عن هذا الصّلح فوائد عامّة كالعفو وإطفاء نار الحقد، وتجاوز الشّرور والابتعاد عن الثّأر. فغايات الصّلح عادة هي الطّموح إلى العيش الكريم. ولذلك اتّجهت الآيات الكثيرة والأحاديث إلى الدّعوة إلى الصّلح لأنّ الصلح خيرٌ كلّه يؤلّف بين القلوب. وتعظّم فوائده عندما يتمّ تجنّب الفتن. وقد أصّل الفقه وأصوله هذا الجانب من المعاملات لأنّه أقرب إلى العدل والقسط. وهو ركن ركين في المعاملات بين النّاس..

الكلمات المفتاحية: فتنة السلطة , معاهدة الضلح , عام الجماعة.

Abstract:-

There is no doubt that every reconciliation is concluded between the just and the unjust. Despite all of this, general benefits result from this reconciliation, such as amnesty, extinguishing the fire of hatred, overcoming evils, and moving away from revenge. The goals of conciliation are usually the aspiration to live a decent life. Therefore, many verses and hadiths tended to call for reconciliation, because reconciliation is good, all of which reconcile hearts. Its benefits are maximized when temptations are avoided. Jurisprudence and its principles have established this aspect of transactions because it is closer to justice and fairness. It is a pillar in the transactions between people.

Keyword: Power strife, the treaty of depravity, the year of the group

المقدّمة

حين تتوقف الأمم في لحظات من تاريخها الحضاري أمام خطبٍ جللٍ كالذي شهدته لحظة الصلح بين الإمام الحسن بن علي(ع) ومعاوية بن أبي سفيان، فسنكون أمام مشهدين متناقضين تناقضاً جوهرياً: الأول، مشهد ديمومة الوحي الإلهي الذي تمثله سياسة الحاكم الشرعي الذي اختارته الأمة وهو الإمام الحسن(ع)، والمشهد الثاني هو افتتاح تاريخ جديد من دنيا السلطة وأهوائها المنقطعة عن الغيب والتي تمثّل أيمًا تمثيل ما نبَّه إليه الرسول الأعظم وأشار اليه بالمُلك العضوض الذي سيأتي من بعده. وهو المُلك الذي أسَّست له دولة بني أمية بقيادة معاوية بن أبي سفيان.

ومن البيِّن أن استقراءً متأنياً لهذين المشهدين الانعطافيين سوف يفضي إلى حقائق دامغة لجهة الانفصال المريع الذي أجرته دولة معاوية بين رحمانية رسالة الوحي ومنفعية سياسة معاوية وأهوائها. تلقاء هذه البيِّنة التاريخية سنجد كيف أن الإمام الحسن (ع) أخذ برحمانية الوحي الإلهي سبيلاً لصلاح أمر الأمة أنَّ تكن النتائج والآثار.

ولا شكّ في أنّ كلّ صلح يعقد بين عادل وظالم. ورغم كلّ ذلك، تنجرّ عن هذا الصّلح فوائد عامّة كالعفو وإطفاء نار الحقد، وتجاوز الشّرور والابتعاد عن الثّأر. فغايات الصّلح عادة هي الطّموح إلى العيش الكريم. ولذلك اتّجهت الآيات الكثيرة والأحاديث إلى الدّعوة إلى الصّلح لأنّ الصلح خيرٌ كلّه يؤلّف بين القلوب. وتعظّم فوائده عندما يتمّ تجنّب الفتن. وقد أصّل الفقه وأصوله هذا الجانب من المعاملات لأنّه أقرب إلى العدل والقسط. وهو ركن ركين في المعاملات بين النّاس.

والمهمّ أنّ تاريخ أهل بيت النبوَّة(ع) طافح بهذه المعاني المتسامية، وهو ما دلَّت عليه السياسة الرحمانية للإمام الحسن بن علي(ع) في لحظة حرجة وحاسمة من تاريخ الإسلام الأول، وهو ما تمثل بالصلح الذي عقده مع معاوية بن أبي سفيان حين أعرض عن الخلافة درءاً للفتنة مؤْثِراً مصالح الأمة على دنيا الخلافة وأهوائها. فماهي أبعاد الصّلح الحسني؟ وماهي ملامح سياسة أهل البيت؟ وكيف ساهمت في فضح مخطّطات وخصوم.

أبعاد الصّلح الحسني:

كيف لنا اليوم أن نقرأ صلح الإمام الحسن عليه السلام؟

عادة ما تخضع معاهدات الصلح لقراءة سياسية، ولكن هل يمكن إخضاع منهج الأنبياء وأحفادهم لهاته القراءة؟ وهل يمكن المقاربة بين منهج الإمام عليه السلام في التحاور السياسي السلمي ومنهج معاوية؟ وهل كانت غاية معاوية في الحكم ترقى إلى نظرة الإمام وآل البيت لهذا التكليف؟

هذا المدخل التأسيسي في قراءة "الصلح" يجعلنا نقرّ بداية أن آل البيت عليهم السلام أصحاب رسالة أخلاقية بالأساس، فهم ورثة الأنبياء كما أن شرعية الحكم كانت بديهية للإمام الحسن، فكان من السهل عليه البقاء والتصدي لمعاوية بالقوة، لكن دخول معايير وأحكام على هذه المسألة جعل الصلح قراراً حكيماً في المواجهة، إذ تقتضي بعض ظروف الحياة ضرباً من السلوك الضامن للانسجام مع القوانين السامية كالذي سلكه الإمام الحسن ساعة حاقت الفتن بأهلها . فقد وجد الإمام نفسه في ظروف خوّلت له الارتقاء إلى مصاف تأويلي جعله يقدّم المصلحة العامّة على كل أحقية في تحمّل المسؤولية الجماعية .

إن بعد النّظر وعمق التبصّر ونفاذ البصيرة لدى الإمام الحسن، دعاه إلى التنازل عن إمامة المسلمين فيما عرف بعام الجماعة وهو دليل على مدى انشغاله بمصلحة الأمة، وهو انشغال جعله يتنازل عن حقّه المحض، بمفعول البيعة التي تحصّل عليها، إذ بويع من أغلبيّة المسلمين. ولما كانت مجريات الواقع والتاريخ على خلاف المراد الحكيم والرؤية الصائبة. فإن إنصاف الحكمة وأهلها يقتضي المعالجة العلمية الرصينة والبحث المعمّق، ولعل هذا البحث يمثل محاولة في الحفر والتمحيص في صفحات هذه الحكمة المتعددة الأبعاد اجتماعيا وسياسيا وانسانيا.

تلك سيرة تسترعي الانتباه وتشدّ الدّارس إليها، وهذا البحث يقوم على فرضية مفادها حاجة المسلمين إلى الغرف من فيوضها سعيا الى استمداد الحلول التي تصلح لمعالجة أبرز ما يتخبطون فيه من ضعف الحوكمة الرشيدة وضرورة تغليب مصلحة الأمة على المصلحة الذاتية. وانظر إلى راهنيّة هذا الحلّ وصلاحيّته، فالمسلمون في هذا العصر يقتل بعضهم بعضا من أجل مصالح شخصيّة أو خدمة لدوائر استعماريّة.

وفي هذا الإطار، علينا أن نؤكد أولا أن تغليب مصلحة الأمة على المصلحة الذاتية وأن الصلح كان طلباً من معاوية نفسه. وفي هذا يقول الإمام عليه السلام: "ألا وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عزّ ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه، وحاكمناه إلى الله عز وجل

بظُبا السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه، وأخذنا لكم الرضا"[١]. لكن الصلح الذي وافق عليه الإمام كان بشرط وبنود، وكانت الحكمة منها بالأساس كشف خداع معاوية وفضح سريرته، كما أن عدّة عوامل اضطرت الإمام الحسن لهذا الصلح منها ان تركيبة الجيش غير متكافئة، وخيانة بعضهم للإمام بمراسلة معاوية سرّا، واستجابة آخرين لإغراءات معاوية بالمال والمنصب ومنهم على سبيل المثال عبد الله بن العباس الذي اشترى معاوية ذمته بالمال: "لأن الحسن بعث الى معاوية قائدا من كندة في أربعة آلاف، فلما نزل الأنبار، بعث إليه معاوية بخمسمائة ألف درهم، ووعده بولاية بعض كور الشام والجزيرة، فصار إليه في مائتين من خاصته، ثمّ بعث رجلا من مراد، ففعل كالأوّل، بعد ما حلف بالأيمان التي لا تقوم لها الجبال أنّه لا يفعل، وأخبرهم الحسن أنه سيفعل كصاحبه."[٢]

لم يكتف معاوية بهذا الفعل بل استخدم دهاءه في نشر الأكاذيب والإشاعات في حق الإمام الحسن، وأعلن أنه وافق على الصلح من قبل أن يجيبه وبهذا أدخل البلبلة في صفوف الجيش وأهل الكوفة، فكان من رصانة الحسن عليه السلام أن يوقف الفوضى ويقبل الصلح تنازلا منه عن حقّه حفظا للأنفس وحقناً للدماء وكشفاً لغدر معاوية أمام مساندیه وتابعيه. وبهذا يكون قد كُشف للرأي العام بهذا الصلح، وعلى هذا الوجه فاق ذكاء الإمام خُبث معاوية في كتابة تاريخ آل البيت على أسس الصدق والوضوح في مقابل الكذب والافتراء .

لقد بدت رصانة وحكمة الإمام واضحة "حين خطب معاوية بالكوفة لّما دخلها، والحسن والحسين جالسان تحت المنبر، فذكر عليا، عليه السلام، فنال منه ثم نال من الحسن، فقام الحسين ليردّ عليه. فأخذ الحسن بيده فأجلسه، ثم قام فقال: أيها الذاكر عليا، أنا الحسن وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمي فاطمة وأمّك هند، وجدّي رسول الله وجدّك عتبة بن ربيعة، وجدّتي خديجة وجدّتك قتيلة ... فلعن الله أخملنا ذكرا، وألأمنا حسبا، وشرّنا قديما وحديثا، وأقدمنا كفرا ونفاقا. فقال طوائف من أهل المسجد: آمين."[٣]

سياسة أهل البيت تفضح الخصوم

لقد اتّسمت سياسة آل البيت بالتعقل والتقوى وهي المنهج الديني القويم في العمل بالخلق الإسلامي، ولكن من يطلب الدنيا كمعاوية منهجه المكر والخداع، لذا كان له الحكم الآني وكان لآل البيت الخلود بالتزامهم بمنهج الرسل والأنبياء .

إنّ الظلم الذي سلط على الإمام وعلى آل البيت عامّة إلا عامل أساسي في تأريخ رفعة أخلاقهم في تنازلهم على السلطة حفاضا على شيعتهم وحقنا لدماء المسلمين "فكان الحسن بن علي، رضي الله عنه، بين أمرين، إمّا أن يستعين بهذه القلّة من المخلصين ضدّ هذه الجموع الكبيرة، وإمّا أن يلجأ لمصالحة معاوية، فكان هذا الخيار الأخير هو الذي ترجّح عند الحسن، لحفظ البقية الباقية من مُحبّي الإمام علي وأهل البيت، لعلّهم ينشرون علومهم وسيرتهم. وكان اللجوء للخيار الأوّل (محاربة معاوية) يعني – إلى حدّ كبير – القضاء على كل من يذكر الإمام علي بخير من أهل العراق، وبهذا يضيع فضل وآثار (الثقل الثاني) بعد كتاب الله"[٤]

وفي فضاء هذه السّياسة الرّشيدة وعلى هذا الوجه كان الصلح منعرجا تاريخيا يعلن ظاهرا مصالحة وولاية معاوية ولكن المعاهدة وبنودها كانت تسجيلا رسميا للمبادئ الأساسية للرسالة المحمدية وتوثيقا لها على مرّ التاريخ، إذ أكّد فيها الإمام الحسن على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما وثق ضرورة عودة الخلافة إلى آل البيت، وفي هذا اقرار ضمني بعدم مشروعية معاوية بل ما هو إلا ضرورة حقنا للدماء كما أسلفنا القول إلى جانب التأكيد في البند الثالث والرابع على أمن الناس وأصحاب علي عليه السلام وشيعته ثم البند الخامس أمان الحسن والحسين وأهل البيت من مكر معاوية وفي البند السادس توضيح لعدم مشروعية معاوية بإلزامه بدفع مال الكوفة للحسن عليه السلام وكان سابع بند عدم سب أو شتم أمير المؤمنين عليه السلام.

كل هاته البنود مثّلت رؤية استباقية للحسن عليه السلام لما سيقوم به معاوية، لذا سجّل له تاريخيا ما يعرف أنه لن يلتزم به ليفضحه وليظهر للناس عامّة أن مبادئ الإسلام من تقدّيس لكتاب الله وسنّته واحترام لآل البيت وأمان شيعتهم ليسوا من منهج حكم معاوية الذي رمى بالوثيقة وبالعهد ومال الى حكم نفسه الأمارة بالسوء والكارهة للسلم والمحبّة. يصف العقاد هذا التّصرّف بقوله: "كانت له حيلته التي كرّرها وأتقنها وبرع فيها، واستخدمها مع خصومه في الدولة، من المسلمين وغير المسلمين، وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائب على التفرقة والتخذيل بين خصومه، بإلقاء الشُبهات بينهم، وإثارة الإحن فيهم، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوي قرباه. كان لا يطيق أن يرى رجلين ذوي خطر

على وفاق فلو أنه استطاع أن يجعل كل من في دولته حزبا منابذا لغيره من رجال الدولة كافة لفعل، ولو حاسبه التاريخ حسابه الصحيح، لما وصفه بغير مُفرّق الجماعات"[٥].

فما كان الحسن عليه السلام بموافق على طلبه للصلح إلا بعد ما كشف عبر مراحل عدّة تبادل فيها الرسائل معه، قدرته على التلاعب والنفاق، فلو كان الأمر يتطلب شجاعة فردية من الإمام فقط لحفظ الخلافة وما كان ليتردد في قرار الحرب، فهو كما وصفه كامل سليمان كان "فهو من أركان الحرب عند أبيه، ومن أمراء جيشه، وهو منه ساعد قوي ومعوان عظيم، فأبو تراب يزحف وأولاده من حوله، يشدّون أزره، ويسندون ظهره، وكلّهم ليث قاصم الضربة"[٦].

لقد بايعت الامّة الإمام الحسن فخطب فيها خطابا بليغا فقال: "أيها النّاس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن النبي، وأنا ابن الوصي، وأنا ابن البشير، وأنا ابن النذير، وأنا ابن الداعي الى الله بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذي كان جبريل ينزل إلينا ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرا، وأنا من أهل البيت الذين افترض الله مودّتهم على كل مسلم، فقال تبارك وتعالى لنبيه: "قل لا أسئلكم عليه أجرا إلاّ المودّة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا"، فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت "[٧].

لكن حين بلغ معاوية أمر البيعة قام بدسّ الجواسيس، لينقلوا له الأخبار، وحين فطن الحسن عليه السلام بالأمر همّ فأرسل إليه تنبيها: "أمّا بعد، فإنّك دسست إلىّ الرجال للاحتيال والاغتيال، وأرصدت العيون، كأنّك تحب اللقاء، وما أشك في ذلك، فتوقعه إن شاء الله، وقد بلغني أنّك شمتّ بما لا يشمت به ذوو الحجى، وإنّما مثلك في ذلك كما قال الأوّلون:

وقل للذي يبغي خلاف الذي مضى تجهّز لأخرى مثلها فكأنّ قد

وأنا ومن قد مات منّا لكالذي يروح فيمسي في المبيت ليفتدي"[٨]

لكنه أجاب بالإنكار وانتهج النفاق للإقناع وما كان بمغالط للحسن عليه السلام فقد كان فطنا وواعيا بشخصية معاوية وأطماعه وحاول أن يثنيه عن نواياه الخبيثة لكن دون جدوى، لذا كانت آخر رسالة وجهها إليه ذات لمحة تحذيرية وأعلن فيها إغلاق باب التفاوض والحوار

ولكن بعد ما لمسه من تخاذل الجيش وتفرّقه وشراء ذمه بالأموال قرر التعقل وحقن دماء المسلمين. وقد قال في ذلك: " و الله ما معاوية بأدّهى منّي ، و لكنّه يغدر و يفجر ، و لولا كراهية الغدّر ، لكنت من أدّهى النّاس و لكن كل غدرة فجرة ، و كل فجرة كفرة ، و لكلّ غادرٍ لواء يعرف به يوم القيامة "[٩].

علينا أن نقرّ بعد كل هذا أن المنهج الحواري الذي انتهجه الحسن عليه السلام من خلال إرسال الرسائل إلى خصمه والرد عليه مرارا ،ما هو إلا دليل على حكمته في خلاص الأمّة وبتر مشروع معاوية الأساسي في القضاء على الإسلام بجاهلية الحروب والفتن .

لذا يمكن لنا أن نخلص إلى أن الحسن عليه السلام رجل السلم بامتياز فرغم ما عايشه من مكر وفتن وخداع إلا أنّه تمسك بالسلم فكان سابق عصره في نحث مبادئ السلام العالمي والتأكيد على الحريات والحفاظ على أمن الشعوب وأمانها ضد الحروب. فحقن الدماء واختار السلم على الحكم فهو بهذا سابق لغاندي ولغيره من الشخصيات العالمية الحديثة التي نالت جائزة نوبل للسلام إذ أن سياسته كانت سياسة حكم الشعب فهو تفاوض وشعبه، كما اختار مصلحتهم على حكمة لهم، وانتهج مع عدوه منهج التحاور والمراسلات وحكم معه لمعاهدة صلح، وإذا ما رجعنا الى هذه المعاهدة وبنودها نلاحظ أنها انبنت على التنازل عن السلطة والزهد فيها رغبة في قيام الأمة والمصالحة بين أفرادها للتعايش السلمي على أسس إسلامية.

معاهدة الصلح انبنت على مبدأ إنكار الذّات و الزّهد في السلطة و إختيار التعايش السلمي لتخليص المجتمع من الفتن و الحروب .

و لو أعدنا النظر في بنود هذه المصالحة لتجلّى لنا الفهم المعاصر للامام الحسن عليه السلام لحقوق المواطنة و لحرية التعبير و غيرها من القيم المدنية المؤسسة لسياسات الدول المتقدّمة .

لذا سنحاول استعراض هذه البنود مع ما يقابلها اليوم من مبادئ الحقوق المدنية :

البند الأول : أن يعمل معاوية بكتاب الله و سنة رسوله صلى الله عليه و سلم ، و يقابله اليوم العمل بالدستور المتمثّل في كتاب الله و سنّة رسوله بالنسبة للأمّة الإسلامية ، و في هذا سنٌ لقانون ربّاني يحفظ كيان الدّولة و يضمن مصلحتها و حقوق مواطنيها .

البند الثاني : أن لا يعهد من بعده لأحد عهدا ، و أن يسلّم الخلافة من بعده إلى الحسن ثمّ الحسين عليهما السلام ، و في هذا تأكيد على عدم توريّث الحكم و السلّطة و أن لا يخطار الحاكم خليفته، و إنّما ترجع للأصلح و لا أصلح من أهل البيت الذين تنازلوا عنّها له ، ليؤكّد هذا الشرّط مرّة أخرى عدم شرعية معاوية و يرجع الحقّ لأهله .

البند الثالث : النّاس آمنون حيث كانوا من أرض الله ، من شامهم و يمنهم و عراقهم و حجازهم ، و في هذا التزام بعدم التعرض للمخالف و المعارض السياسي و ضمان حرية الرأي و الفكر .

البند الرّابع : أصحاب علي من شيعته آمنون على أنفسهم و أموالهم و نسائهم و أولادهم حيث كانوا ، و في هذا أيضا كفالة لحقّ المعارضة و تأكيد على أن معاهدات الصّلح ليست حبرا على ورق بل هي التزام سياسي و أخلاقي ، و هو ما سيبيّن من بعد عدم جدارة معاوية بأي عمل سياسي أو التزام أخلاقي .

البند الخامس : أن لا يبغي معاوية على الحسن و أخيه الحسين، و لا أحد من اهل بيت النبي سرّا أو علانية و لا يخيف أحد منهم في أفق من الآفاق ، و هذا مبدأ يتناسب اليوم و منح الخصم والمخالف السياسي حقّ الحياة الآمنة و عدم التعرض له و لحزبه بأي ضرر معنوي أو ماديّ.

البند السادس : أن يعطي معاوية للحسن عليه السلام ما في بيت الكوفة و مبلغه خمسة آلاف، و خراج دارابجرد من فارس و في هذا حفظ لأموال المسلمين ، و التعامل مع معاوية على أنه عامل في الدّولة لا قائما عليها .

البند السابع : عدم سبّ أو شتمّ أمير المؤمنين عليه السلام ، و في هذا تذكير بالخلق الإسلامي و السياسة الرّاقية في احترام المخالف .

السياسة على هذا الوجه من التحليل و من تقديم الإمام الحسن لها في بنود الصلح هي سياسة العدل و الإنصاف ضد الظلم و الخداع و المكر ، فهي انبنت على مواقف واضحة و منهج صريح كما اهداف ساميّة في العدل و المساواة، لذا ترقى هذه السياسة إلى القانون العالمي لإدارة الحروب بين الدّول .

الخاتمة :

تحتاج كلّ أمّة ترغب في التّقدم إلى إعادة النّظر في سير عظمائها لتسلتهم منها العبر والفوائد، ولا سيّما في فترات انحدار الحضارة وانغلاق الثّقافة. وفي هذا الإطار، تمّ الالتفات إلى سيرة الإمام عليه السلام فكان اللّافت للانتباه فيها هو حبّه لأمّته وحرصه على حفظ دمائها. فكان ذلك بمثابة المرآة الصّافية التي فضحت مخطّطات السلطة الأموية التي شقت طريقها نحو مُلكٍ عضوض لَّما تزل الأمة تكابد مرارته إلى يومنا الحاضر..

هوامش البحث

١ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ج١٣، ص ٢٦٨، أسد الغابة، ابن الأثير، ج ٢، ص ١٣، سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٢٦٩ .

٢ أعيان الشيعة، ج ١، ص ٥٦٩

٣ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ج١٦، ص ص ٤٦ ٤٧، مقاتل الطالبين، ص ٤٦، الإرشاد ج٢، ص ١٥، المناقب، ابن شهر آشوب، ج ٣، ص ١٩٨ .

٤ قراءة في كتب العقائد، حسن بن فرحان المالكي، ص ص ٧٠-٧١

٥ معاوية، العقاد، ص ص ٣٦ و٣٧

٦ الحسن بن علي، كامل سليمان، ص ٣٥

٧ المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، ج٣، ص ١٧٢ .

٨ مقاتل الطالبيين، ص ٣٣، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٣١

٩ شرح نهج البلاغة ، جزء ١ ، ص ٢١١